آليات قراءة التراث البلاغي في العصر الحديث (الاتجاه التاريخي)

سجى فرحان عساف **أ. م. د. إيهاب مجيد محمود**
جامعة الأنبار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية **جامعة الأنبار/ كلية التربية للعلوم الإنسانية**
قسم اللغة العربية **قسم اللغة العربية**

توطئة:

تعد القراءة مصطلحًا واسع الانتشار في الدراسات الأدبية والنقدية منذ القدم فيراها النقاد عملية شائكة ومعقدة تشبه تعقيد النصوص وإبداعها لذا علينا أن نبين مفهوم وتعريف القراءة لغة واصطلاحاً.

القراءة لغة: مصدر للجذر اللغوي(ق ر أ) ويقصد به في بعض معجمات العربية الجمع والضم ، وتتضمن أيضاً الضم والنطق والإبلاغ معاً[١] .

القراءة إصطلاحاً: فالقول(بأن فرداً يعرف القراءة يمكن أن يترجم إلى معنيين، فهو يعني أولاً أنه بإستطاعة هذا الفرد أن يربط صوتاً بحرف وأن يعبر عن الحرف بالصوت الذي يناسبه)[٢].

لقد تطور مفهوم القراءة ليصبح(عملية يراد بها أيجاد الصلة بين لغة الكلام والرموز الكتابية ويفهم من هذا أن عملية القراءة ذات عناصر ثلاث هي المعنى الذهبي، واللفظ الذي يؤديه، والرمز المكتوب)[٣].

والقراءة ليست أحادية الجانب ولكن(عملية مركبة، مؤلفة من عدد من العمليات المتشابكة التي يقوم القارئ للوصول للمعنى الذي قصده الكاتب تصريحاً أو تلميحاً، وإستخلاصاً وإعادة تنظيمه والإفادة منه) [٤].

ولأن القراءة نقلت مركز الإهتمام في العملية النقدية الإبداعية من منبعها(المبدع)، إلى مصبها (المتلقي)؛ فهي بذلك تمثل إتجاه جديد من إتجاهات النقد الأدبي الحديث؛ وهذا أدى إلى أن تولد منابع أخرى يستسقى منها النص، وبهذا يتوالد النص عدة مرات بحسب القراءات المختلفة، وفي محاولة لإنتاج نص جديد يوازي النص الأول فهي تعمل على إضافة مزيد من التأويلات، وبهذا تكون القراءة تشييد وإسهام فاعل في إنتاج معان أخر تضاف إلى ما يقدمه النص بوصفه قراءة أولى لعالم النص المتاح[٥].

فالقراءة إبداع مستمر ومتجدد، وفاعل يصوغ النص للكشف عن مسارات معرفية جديدة. ولقد أصبحت منهجاً مقترحاً يعمل على إنتاج معطيات جديدة تضيف على دور القارئ مزيداً من الإهتمام والعناية بوصفه الطرف الثالث من أطراف عملية الإبداع، لهذا فالقراءة عملية رافقت النص على إمتداد الإنتاج المعرفي في آداب العالم. ولقد كثرت الإتجاهات والنظريات النقدية الحديثة في مقاربة الأدب، ونهضت القراءة بوصفها إسهام فاعل في إعادة إنتاج النص على وفق

المنهج المقترح للقراءة فإذا كان (الأدب هو ما يحدث أثناء قراءتنا فإن قيمته تعتمد على قيمة عملية القراءة)[٦].

ومن مرتكزات الدرس البلاغي الحديث أن(النقد قراءة والقراءة نقد)، وهذا التفاعل المستمر والمتواصل رأياً مفاده أنه(لا وجود لقراءة دون إعتبارها نقداً، ولا وجود لنقد إلا لأنه قراءة) [٧].

والقراءة ليست منغلقة على ذاتها بل هي منفتحة على المناهج التي تخدم توجهها في مقاربة النص فكل قراءة سوف تصبح يوماً قراءة سابقة وهكذا تتحدد(العلاقة بين القراءات الجديدة والقراءات السابقة عليها في أنها تستوعبها، ولكنها تحاول تخطيها لما تراءى من نقص في إستيعات تلك القراءات السابقة لإبعاد الظاهرة التي تعرض لها الخلل في الجهاز المفهومي لهذه القراءات أو الصور منهج القراءة بما هي تفسير)[٨].

فالقراءة كما النقد يتغذى بكل نتاج معرفي يطور أدواتها، ووسائلها في التحليل و الدراسة، وإذا لم تحقق القراءة هذا الشرط فإنها جهد يصل إلى درجة الصفر في الإنتاج(فالقراءة التي تعكف على مجال ما عكوفاً منغلقاً تعجز عن إكتشاف الدلالات الحقيقية لمنجزاته المعرفية)[٩].

فالنص النقدي لا تتطور إمكاناته ولا يكتسب حيويته إلا من خلال (التساؤل المستمر) وهذا أمر لا يتحقق إلا من خلال القراءة التي(لا تبدأ من فراغ بل قراءة تبدأ من طرح أسئلة تبحث لها عن إجابات، وسواء كانت هذه الأسئلة التي تتضمنها عملية القراءة صريحة أو مضمرة فالمحطة في الحالتين واحده وهي أن طبيعة الأسئلة هي تحدد للقراءة آلياتها) [١٠].

وإن مفهوم القراءة عرف تحولاً واضحاً وإنتقل من المعنى البسيط الشائع إلى دائرة المفاهيم النقدية المتعددة الإتجاهات إذ يلاحظ محمد عدنان سالم أن مفهوم القراءة قد تطور من المعنى البسيط السهل الذي يمثل في القدرة على التعرف الحروف والكلمات والنطق بها صحيحة ولهذا هو الجانب الآلي من القراءة إلى العملية المعقدة التي تشمل الإدراك، والتذكر، والإستنتاج، والربط، ثم التحليل والمناقشة، وهي القراءة الناقدة التي تحتاج إلى إمعان النظر في المقروء ومزيد من الأناة والدقة، وقد يكون التصور البسيط لمفهوم القراءة لدى الباحثين(بإدراك حسي لرموز الخط وتعرف عليها وتذكر له) [١١].

وليست القراءة فعلاً فيزيولوجياً يرتبط بإحداث الوحدات الصوتية عبر النطق. بحسب ما تقتضيه الأنظمة اللغوية لأي لغة، وإنما القراءة، سواء كانت قراءة للعالم بوصفة وجوداً يقع خارج الذات الإنسانية، أم نصاً بوصفه تشكيلاً لغوياً، تعني الفهم، ومن ثم فأنها تمثل نشاطاً معرفياً ذهنياً يختلف ويتفاوت بحسب رؤية القارئ وبحسب طبيعة نظرته إلى العالم أو النص، والزاوية التي يصدر عنها[١٢].

والقراءة بمثابة عملية فك الشفرات وكشف الأسرار وتعرية الرموز ولا يمكن لأي نص أن يكون نصاً إلا بفعل القراءة. وقد إرتبط مفهوم القراءة في التراث الإسلامي بالتفسير والتأويل، بإعتبارهما

طريقين لإستخراج المعنى وإظهاره من الكيان النصي، ويرتبط التأويل بالإستنباط، في حين يغلب على التفسير الرواية، وفي هذا الفرق يكمن بعد أصيل من أبعاد عملية التأويل، وهو دور القارئ في مواجهة النص والكشف عن دلالته[١٣].

وإن البحث المستمر عن أفضل شكل للفهم والإستيعاب، هو ما يسمى بالتأويل، لأن كل قراءة تفتح آفاق للتساؤل ولتنشيط الفكر؛ ويمكن القول أن التأويل محكوم بعملية إستطلاع الحقيقة السرية أو المعنى المختفي وراء الإشارات والتعبيرات المختلفة. وعندما تتكلم عن تأويل النص الأدبي فإحتمال أن يكون معناه من الإتساع أو العمق أو التعدد بحيث لا تكفي في معرفة القراءة الواحدة أو المتعددة إذ يبقى من الممكن أن يمثل القارئ أو القراء دور اللاعب في مقابلة لا تنتهي بحيث يكونون منغمسين في الشبكة الداخلية للنص ومعلق فهمه وتحديد معناه ومرجعيته إلى ما لا نهاية [١٤].

ونجد الأمر إختلط عند محمد مندور في الفصل بين التصوير والوصف، فهو يرى (إن الشعر رسم ناطق، و الرسم شعر صامت، فإن مضمون كل من الفنين قد أخذ يتحدد بعد ذلك على نحو يلوح لنا اليوم حاسماً، فالشاعر لم يعد يطمح إلى تجسيم الموصوفات كما كان يريد (البرناسيون) وأنصار الفن للفن، بل أخذ يحصر همه في أن يعبر عن وقع الموصوفات في نفسه وتفاعلها مع وجدانه، وكإن الوصف قد صار ضرباً من شعر الوجدان لا ضرباً من المحاكاة الجمالية حتى ليلوح لنا أحياناً كثيرة أن الشاعر الحديث لا إلى الوصف للتجسيد الحسي، بل كمحك للوجدان وإمتزاج بالطبيعة وتجاوب معها وإنفعال بها قد يصل إلى حد الحلول الشعري؛ أي إلى حد فناء الشاعر وإمتزاجه بها[١٥].

في المقابل أنكر عليه الولي مفهوم مندور حين ذكر بأن ليسنج الذي يحيل عليه مندور كثيراً، يؤكد في نصوص معينة عكس ما يذهب إليه صاحبنا، وذلك في نص ليسنج(إذا كان الرسم والشعر يستعملان في محاكاتهما وسائل أو دلائل مختلفة... وإذا كانت هذه الدلائل تدخل بالتأكيد في علاقة وثيقة بالشيء الذي تدل عليه...، فالمؤكد أيضاً أن الدلائل، المنتظمة إنتظام تجاور، لا تعبر إلا عن أشياء تكون المجموعات منها أو الأجزاء متجاورة، في حين أن الدلائل المتعاقبة تعبر فقط عن أشياء تكون المجموعات منها أو الأجزاء متعاقبة . إن الأشياء التي تكون منها المجموعات والأجزاء متجاورة تسمى أجساداً، والأجساد بعلاقتها المرئية تمثل موضوع فن الرسم، أما الأشياء التي تكون المجموعات منها أو الأجزاء متعاقبة فتسمى أفعالاً وهي الموضوع الخاص بالشعر)[١٦].

لذلك فنحن نرى أن قراءة القارئ لنص شعري أو رواية فهو يتصور ما كان يريد أن ينقله الشاعر أو المؤلف في زمن أو موقف معين ثم يصف ويتخيل لذلك ترى هذه المصطلحات مهمة في القراءة كي يفهم القارئ النص ويصل للنتيجة المحتومة.

وإن القراءة تدخل في مجالات عدة كالتفسير والتحليل والشرح والتأويل والتخيل والوصف والتصوير...الخ هذه كلها وظائف مهمة في قراءة النص وكي يستوعب القارئ ما يقرأ ويفهم ما يريد المؤلف إيصاله، والقراءة تدخل في عدة إتجاهات تاريخية ونفسية وفلسفية وإجتماعية وغيرها كثير.

الاتجاه التاريخي

إن كلمة البلاغة الإنكليزية مشتقه من الخطابة اليونانية وكان أرسطو أول من طور نظرية كاملة للبلاغة وكان من أشهر تلامذة إفلاطون ووضع أرسطو مبادئ الجدال التي لا تزال مؤثرة لغاية اليوم. وأقام أرسطو بعد سنة ٣٦٧ق.م. و إستمع الى البلغاء و الخطباء، وأخذ بهم و بقدرتهم على صنع الكلام. وإندفاعهم به إندفاع يكاد يكون طبيعياً، ولاحظ مواقفهم في الخطابة، وعرف طرقهم في الإعداد معرفة كان لها تأثيرها في نفسه حينما تصدى للخطباء، وللسوفسطائيين منهم بصفة خاصة، ينتقدهم، ويزيف أفكارهم، ويرسم لهم الطريق في الفكر وفي المنطق. أعجب أرسطو بأفلاطون وأدركه في شيخوخته يرسل الآراء إرسالاً فتتلقفها أثينا، و يتلقفها الطلبة بالبحث والدرس، فكان من أحسن تلاميذه[١٧].

أسس أرسطو كأستاذه أفلاطون مدرسة Le Lyeee (الليسية)في أثينا كان لها آراؤها، وكان لها تلاميذها الذين أشاعوا آراءه وحفظوها عدة أجيال، وألف كتابة (السياسة) وكذلك عندما خرج تلميذه الإسكندر لغزو آسيا سنة ٣٣٥ أكب على العالم العلم و التعليم، و كان على أتصال دائم مع تلميذه ليرسل له من الآفاق الآسيوية بمجموعات من النباتات و عظام الحيوانات كانت فيما بعد المصادر العلمية لدراسته في التاريخ، و أرسطو أول من فكر في إنشاء المكتبة[١٨].

وأرسطو إذا كتب كان أسلوبه في الكتابة دقيقاً عميقاً، يعرض الفكرة ويقلبها، ولا يزال يقلبها حتى يصل الى مصدرها الأول، وهو يضرب على هذه الفكرة بشده من العصبية الفكرية عنيفة، فيكون لها حرارة و يكون لها ضوء، ثم هو بعد ذلك يزجيها في عبارات عصيبة غاية في الفصاحة والبيان، وإن كانت بعيدة عن القواعد التي قررها البلاغيون قبله. وقد ترك أرسطو نحو خمسة و عشرون كتاباً تنتظم كل المعلومات العقلية التي يعرفها العقل البشري في القرن الرابع ق.م. جمع هذه الكتب تلميذه تيوفراست وكان أرسطو قد أوصى أن يتولى شأن مدرسته من بعده، فعلق عليها، ثم وقعت في يد تلميذ آخر من تلامذة أرسطو هو نيلي سنة ٢٧٢ق.م. وإحتفظت بها أسرته حتى سنة ٩٠. ثم بيعت للفيلسوف النحوي أبيلكون، وبعد وفاته أستولى عليها القائد سيلا و حملها الى روما، وهناك أطلع عليها شيشرون الحطيب الروماني فأكب عليها نسخاً و تعقيباً، وكانت المرجع الوحيد لعلماء اليونان الذين إتخذوا روما وطناً ثانياً. ولعلماء الرومان الذين عرفوا

قيمتها و ضرورتها لتطور مدينتهم الحديثة. ولم تأت سنة ٣٩ق.م حتى كانت هذه الكتب في صدر المكتبة الرومانية التي أنشأها القنصل أزينيوس بوليو[١٩].

والبلاغة هي نفسها الخطابة عند أرسطو. وعندما نتحدث عن أصالة كتاب الخطابة نتحدث من ناحيتين: أن كتاب الخطابة لأرسطو لا لغيره ممن تقدمه من الخطباء أو ممن تأخر عنه من تلاميذه، والثانية أن فكرة الخطابة أصيلة في نفس مؤلف الكتاب لم يقترضها من أحد ممن تقدمه[٢٠].

في الثقافة الغربية يدور معنى (البلاغة) في معنيين مختلفين الأول: بلاغة الحجاج التي تدل على الخطاب الذي يستهدف إقناع السامعين أو تغيير الأحوال والمقامات، أما المعنى الثاني: بلاغة الشعر تدل على الخطاب الذي يتنصل من مهمة الإقناع لكي يصبح هو في حد ذاته هدفاً وغاية، أي يصبح هدفاً جمالياً[٢١].

أما إهتمام الفلاسفة البلاغيين الغربيين المحدثين ببلاغة الخطاب فراجع الى قناعتهم بالدور الخطير الذي عادت تلعبه في توصية الرأي وبلورة الفكر المعاصر. ونظراً للدور الذي تلعبه بلاغة الخطاب في التأثير في الرأي الوطني و الدولي وتوجيهه بادرت الولايات المتحدة منذ عقود الى إعادة الإعتبار الى هذه البلاغة بتحويلها من مادة ملحقة بتعليم الإنجليزية الى مادة مستقلة في شعبه خاصة بفن التواصل وخطاب الإقناع [٢٢].

وأحد كتب أرسطو بإسم(كتاب الشعر)الذي يرجع الفضل في إظهاره الى الفيلسوف الإسلامي (ابن رشد)الذي نقله الى العربية واشتغل به العلماء بعد ذلك فنقلت الترجمة العربية الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر نقلها (هرمان أليمانيوس)١٤٨١ في فنيسيا و بعدها ظهرت ترجمة (جورج فالا)الى اللاتينية أيضاً. وفي اوائل القرن السادس عشر ظهرت (مجموعة حطباء اليونان) لمؤلفها(آلدمانوس) سنة ١٥٠٨وكيفما كان الأمر فإن الجزء الثاني من (كتاب الشعراء) يدل بإعتراف النقاد بقوة أرسطو العجيبة في البحث و الملاحظة. أما كتاب الخطابة فما لا شك فيه أنه لأرسطو في معظم اجزائه، والتراجم اللاتينية التي ظهرت فيما بعد هي صوره صحيحة لما كتبه أرسطو في الخطابة، كما أن التراجم المتأخرة التي ظهرت في مختلف اللغات الأوربية صوره صادقة للنصوص اليونانية لا إختلاف بينها و بين الكتاب. وطريقة الكتاب علمية لا تزال حية، وأفكار الكتاب لا تزال باقية في الأسلوب الخطابي على الرغم من تطور الخطابة وتقلبها في الأمم والأجيال؛ والمنهج الذي إختطه أرسطو هو المنهج العلمي السائر الى اليوم، وتقسيم الخطابة صحيح فلسفي مبني على الزمن، ومبني على موضوع الخطبة، وكان التقسيم رائجاً حتى القرن التاسع عشر، فزاد فيه النقاد أقساماً في الخطابة التي حصرها أرسطو في الحدود الزمنية[٢٣].

وتبنى الخطابة عند أرسطو على ثلاث وسائل(الإقناع أو البراهين، والأسلوب أو البناء اللغوي وترتيب أجزاء القول، ثم أن هناك عنصر الإلقاء الذي إعتبره الدارسون بعد أرسطو ومنهم البلاغيون العرب عنصراً مستقلاً ويتضمن الحركة والصوت)[٢٤].

الخطابة قبل أرسطو: ظهر السوفسطائيون في اليونان مع ظهور (النثر الفني)الذي تتسم الحياة في القرن السادس قبل الميلاد. وظهور النثر الفني في اليونان مقترن بظهور مدرستين إحداهما البونية التي أسسها(تاليس) في نحو سنة ٦٠٠ق.م ذات إتجاه روحي. إنكب فلاسفة هذه المدرسة على دراسة الطبيعة و خاصة دراسة العناصر كالماء و الهواء و النار- أما المدرسة الثانية هي المدرسة الأيلية التي أسسها أكسينوفان في نحو ٥٤٠ق.م وكان الأتجاه في هذه المدرسة نقي المدرسة الأولى: كان إتجاهاً مثالياً لا مادياً ولا عددياً، وكان أكسينوفان نفسه شاعراً و فيلسوفاً ينزع في فلسفته الى الناحية الدينية[٢٥].

وظهرت جماعتان لهذه المدرستين إحداهما تحاول أن تقرب المسافة، ومن هذه الجماعة الشاعر امبيدوكت و الفيلسوف أنا كساجور فقد عملا معاً في التوفيق بين الذوق العلمي و الذوق الديني. أما الجماعة الثانية لم تعبأ بآراء المدرستين، ولم تحاول التوفيق بينهما، ووقفت ومن مبادئهما موقفاً محايداً، بل موقفاً سلبياً، كله إنكار، وكله تسفيه لأفكارهما، ولعقول من يدين بهذه الأفكار. ولم تكن هذه الجماعة إلا جماعة السوفسطائيين الذين ظهروا دفعة واحده، وحاولوا أن يفرضوا آرائهم على جمهور الآثينيين. تسموا بالمعلمين وحاولوا تعليم الحكمة وما يعلمون إلا الحكمة الإنكارية، ما دام إدراك الحقيقة العلمية مستحيلاً في نظرهم. فعندهم كل ما يسميه العلماء ظاهرة علمية، ما هو إلا مظاهر لا حقيقة وراءها. وما العلماء في نظرهم إلا أناس رقت نفوسهم، لأنهم ممتعون بحساسة مطلقة[٢٦].

وقد ركز أرسطو حديثة بعد تعامله مع أنواع الخطابة الثلاثة، الإحتفالية ، والإستشارية ، والقضائية عن عناصر بناء الخطاب، على المكونات الثلاثة له، والمساعدة في فاعليته، وهي المرسل (الخطيب) والمتلقي(المستمع) والرسالة (النص) فكتاب الخطابة الأول هو كتاب المرسل، الذي عالج فيه مفهوم البراهين بحسب تعلقها بالخطيب وحسب إنسجامه مع الجمهور وذلك حسب الأنواع الثلاثة للخطابة، وكتاب المتلقي هو الكتاب الثاني الذي عالج فيه عدد من الإنفعالات و الأهواء، والثالث هو كتاب الرسالة نفسها عالج فيه الأسلوب (lexis)أو البيان(Elocution) أي الصور البلاغية و ترتيب أجزاء القول(Taxis) والحجاج الجيد يقتضي المعرفة بما يهز الذات التي تتوجه إليها بالخطاب، وإن الخطيب الذي تتوفر فيه الفضيلة و الفطنة والتلطف بالسامعين هو الخطيب الجيد الناجح. وبين للخطيب، والثانية تقوم على الأحوال النفسية، والثالثة على خاصيات الخطاب نفسه حينما يكون برهاناً[٢٧].

والمفهوم الثاني للبلاغة هو البويتيكا أو الشعرية، التي تنبثق من المتن الحكائي، أي من الحبكة التي يبتكرها الشاعر عن طريق المحاكاة وتتمثل في الملحمة و المأساة و الملهاة و للشاعر المحاكي عند أرسطو أن يسلك منهج النبلاء من الناس وأرذالهم وعلى هذا الإعتبار قسم أرسطو الشعراء. فإذا كانت الريتوبكاهي بناء للحجج فالفعل الشعري إبتكار للحكاية و الحبكة، ووفق هذا التصور فإيجاد الحجة يعادل الإبتكار[٢٨].

أفلاطون و الخطابة: أن أفلاطون ناصب العداء للسوفسطائيون، و تأثر أرسطو بآراء شيخه في كثير من الأحيان، وخرج عليها في قليلها خروجاً ألحقه بالسوفسطائيين الذين أنكر عليهم منهجهم و تفكيرهم. سار أرسطو مع أفكار أفلاطون حتى كشف عن (القياس)و(الشكل) في المنطق فترك الطريقة الجدلية الحوارية التي تعلمها من الشيخين قبله، وألف في الخطابة و خلصها من سلطة الفلسفة ومن سلطة الأخلاق أيضاً، وقد عانى معاناة كبيرة فمن الصعب على مؤلف كتاب(الأخلاق) أن ينكر الأخلاق وأثرها [٢٩].

وعلينا بالذكر أن أول من نبه في العصر الحديث إلى العلاقة بين البيان العربي (والبيان اليوناني) هو الأديب العالم الدكتور (طه حسين) في بحث له ممتع قدمه للمؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩٣١م في مدينة (ليدن) بعنوان (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) قدم طه حسين هذا البحث للمؤتمر باللغة الفرنسية. وقدمه إلينا زميلنا المؤرخ المحقق الأستاذ(عبد الحميد العبادي بك) باللغة العربية في ترجمة رصينة إمتزج فيها سمو أفكار المؤلف بروعة عبارات المترجم، فجاء البحث قيماً في أوله وآخره وأهم ما جاء في هذا البحث[٣٠]:

١_ الإنكار على الجاحظ الذي ينكر أن يكون لليونان بلاغة، والتوكيد بأنه لا يعرف شيئاً عن كتاب (الخطابة) لأرسطو، ثم العجب من تناقض الجاحظ حينما يثبت للعرب وحدهم كل الشأن في البلاغة، وحينما يترك معهم غيرهم من الفرس و الهند و الروم[٣١].

٢_ظهر الجدل و ظهرت المعتزلة، وهم أهل لدد وخصومه فإتصلوا بالمنطق و بالجدل ومن ثم إتصلوا بالخطابة. غير أنا لا نستطيع أن نحكم على مقدار إتصالهم (بالأدب اليوناني) وكل ما نعتقده أنهم تصوروا صناعة الكلام كما كان يتصورها اليونان من بعض الوجوه. غير أن تأثير "الهيلينية" (اليونانية) كان واضحاً في نتاج الشعراء و الكتاب الذين ينتمون الى أصل أجنبي كأبي تمام وعبد الحميد و أحمد بن يوسف و غيرهم من كتاب المأمون[٣٢].

٣_ فلاسفة المسلمين لم يهتموا بكتاب(الخطابة) ولم يحاولوا تطبيقه لإختلاف نظام القضاء عند المسلمين عنه عند اليونان. كذلك ترجم كتاب (الشعر) في القرن الرابع الهجري فلم يفهمه أحد على الأطلاق، ولكنهم حاولوا تطبيق بعض القواعد التي فهموها (في العبارة) ولم يفرقوا بين القواعد الخاصة بالشعر والقواعد الخاصة بالنثر[٣٣].

تعرضت البلاغة القديمة التي تعني أول محاولة لوعي الأنسان بلغته، لأزمة حقيقية مع ظهور الرومانية وتفكك القواعد الكلاسيكية في الصياغات اللسانية. ولم تعرف البلاغة هذه الأزمة طوال تاريخها الأوربي منذ ظهور كتابي أرسطو(الخطابة- فن الشعر)اللذين احتلا مكانة عالية في صياغة التصورات النقدية التي عرفت في عصر النهضة الأوربية حتي العصور الحديثة. وقيل أن هذه البلاغة قد ماتت وفتحت المجال لعلوم أخرى كالشعرية و الأسلوبية لتتربع على عرشها[٣٤].

وقد أصبح من الشائع بعد الإستهزاء بالصور و اللغة والصياغات البلاغية القديمة ورفض كل محاولة للتصنيف و التشقيق وإلصاق بطاقات صغيرة على أدق التفاصيل في التراكيب والمعاني المختلفة التي يتضمنها النص بالطريقة التي كان يلجأ إليها بعض البلاغيين الأوربيين المتأخرين من أمثال ديمارسيه(الذي هو أديب و روائي)وفونتاني(الذي هو روائي وشاعر ألماني) . وكان فكتور(الذي هو شاعر وأديب وروائي فرنسي) يفخر في إحدى قصائده بأنه سخر من البلاغة و:

" صعد على نصب أرسطو وأعلن

بأن الكلمات متساوية، حرة ،راشدة"

فيما كان فرلين (الذي هو شاعر فرنسي)في كتابه الفن الشعري الصادر ١٨٨٢م يدعو إلى "الإمساك بالفصاحة ودق عنقها"[٣٥].

غير أن الذي حدث في أوربا هو أن الدرس البلاغي لم يهمل ولم يندرس على الرغم أنه لم يعد قادراً، على إعتلاء عرشه السابق و تلبية متطلبات التعبير النثري و الشعري الجديد. ومنذ أن أتخذت أبحاث اللغة شكل العلم و سلكت مناهج و طرقاً جديدة في الكتابة ظهرت الحاجة لإيجاد تفسير جديد للصور البلاغية، لأن التفسير القديم قد أصبح بلا جدوى[٣٦].

وإن فكرة الإسلوب فكرة قديمة ترجع الى البداية التفكير البلاغي الأوربي، وقد إرتبطت أول أمرها بالبلاغة أثر من إرتباطها بالنقد. ولم يكن لذلك من سبب سوى أن الإسلوب قد درس من هو عنصر التأثير في الخطابة. والخطابة القديمة كانت تختلف عن الأنواع الأدبية الأخرى بمضامينها السياسية و الوعظية و الحجاجية الجدلية. ولذا كان على الخطيب، كي يحقق مراميه في الخطبة، أن يستخدم ألفاظ مقنعة وعبارات محكمة و إشكالاً من الكلام التي تجعل النص واضح ملموساً. وقد وردت الإشارة لذلك في كتاب الخطابة لأرسطو وفي كتاب الأسلوب الرفيع (The suplime style) لمؤلفة لونجانيوس الذي عني بالأخلاق مثلما عني بالمنابع الروحية للأدب[٣٧].

واليونان هي الأمة التي نشأت فيها البلاغة في حضانة الفلسفة. إذ عرفها لاهارب وهو ناقد فرنسي إشتهر بدروسه الأدبية التي ألقاها في الليسيه وجمعها في مجلدين بعنوان "ليسيه" (البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حق)[٣٨]. وقال سورين(هي الفكرة الصائبة، ثم الكلمة

المناسبة). وقال لابوريير وهوشاعر درامي ولد ومات في باريس(هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس).ولقد تخيلها(سنيك) إلاهاً مجهولاً في صدر الإنسان. ومثلها القدماء إله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد. والتمثال على هذا الوضع لا يمثل غير بلاغة الخطيب(٣٩).

قيل للفارسي: ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل،قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام، قيل للهندي :ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وإنتهاز الفرصة، وحسن الإشارة ، وقال أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها الى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك، وأحق بالظفر(٤٠).

. ولقد دفعت التطورات السريعة التي عرفها المصطلح البلاغي العربي منذ القرن الثاني الهجري بعض الباحثين و المستشرقين الأوربيين المطلعين على تاريخ البلاغة العربية أو بعض جوانبه الى التشكيك في أصالة هذه البلاغة وطرح قضية الأثر الأوربي وكل المزاعم الخاصة بوجود نموذج أجنبي أو فارسي أقتفته العلوم اللغوية و الفقهية العربية و إستندت إليه ظهورها و نشأتها الأولى ثم تطورها و نضجها المبكر فيما بعد معتقدين بأن الزمن الذي تطلبه إكتمال هذه العلوم ونضجها ليس كافياً بالمقاييس التي عرفوها في التاريخ الأوربي الخاص بتطور هذه العلوم في أثينا و روما، وأنه لابد للعلوم البيانية العربية من عناصر معرفية تقع خارج المنطقة العربية لكي يكون ظهورها و تطورها السريع مفهومين. وهم يقولون أن تقسيم الكلام في النحو العربي إلى أسم وفعل وحرف إنما هو تقسيم يوناني. ودي بور مؤرخ الفلسفة الإسلامية بنسب أصالة المناهج اللغوية التي سلكها العرب في مباحثهم الى أرسطو(٤١).

ولعل أول ما تردد من معنى البلاغة في سؤال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش، فقد قال له:(ما هذه البلاغة التي فيكم؟) قال:(شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا). وقال له معاوية:(ما تعدون البلاغة فيكم؟) قال:(الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال(أن تجيب فلا تبطيء وتقول فلا تخطئ)(٤٢).

قال عبد الكريم بن روح الغفاري، حدثني عمر الشمري، قال، قيل لعمرو بن عبيد ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الإستماع لم يحسن القول. قال ليس هذا أريد. قال: قال النبي محمد رسول الله:(إنا معشر الأنبياء بكاءَ)(٤٣). أي قليلو الكلام، قال: قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام، مالا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت. قال السائل ليس هذا أريد. قال

عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ، في حسن الإفهام، قال: نعم. قال: إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة أستجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب و السنه، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، وإستجوبت على الله جزيل الثواب، قلت لعبد الكريم: من هذا الذي صبر له عمرو هذا الصبر؟ قال: قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال: ومن كان يجترئ عليه هذه الجرأة إلا حفص بن سالم[٤٤].

وذكر الجاحظ في كتابه قول البعض(وهو من أحسن ما إجتبيناه ودوناه- لا يكون الكلام يستحق أسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه الى قلبك)[٤٥].

قال المبرد:(أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى وإختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقارنة أختها ومعاضدة شكلها وأن يقرب بها البعيد ويحذف منها الفضول)[٤٦].

قال العسكري:(البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا إنتهيت إليها وبلغتها غيري ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء الإنتهاء الى غايته فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيهمه وسميت البلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك الى ما فوقها وهي البلاغ أيضاً)[٤٧].

وأبدى رأيه في تعريف البلاغة وحدها بقوله:(البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن)[٤٨] واكتفى الخفاجي بالإشارة الى إضطراب القوم في حدها، وفرق بينها وبين الفصاحة فقال:(والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً كالذي يقع في الإسهاب في غير موضعه)[٤٩].

وعبد القاهر الجرجاني لم يفرق بين الفصاحة و البلاغة والبراعة والبيان، وكل ما شاكل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا أو تكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم؛ ويكشفوا لهم ما في قلوبهم[٥٠].

البلاغة عند الرازي(بلوغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه مع الإحتراز المخل والإطالة المملة)[٥١].

قال أبن الأثير: إن الكلام يسمى بليغاً لأنه بلغ الأوصاف اللفظية و المعنوية، والبلاغة شاملة للألفاظ و المعاني وهي أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنساناً، وكذلك يقال:(كل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً) وفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص و العام، وهي أنها لا تكون إلا في اللفظ والمعنى شرط التركيب، فإن اللفظة المفردة لا تنعت بالبلاغة وتنعت بالفصاحة إذ يوجد فيها الوصف المختص

بالفصاحة وهو الحسن وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينظم كلاماً[٥٢].

وحينما قسم السكاكي البلاغة ووضع معالمها في كتابة (مفتاح العلوم) عرفها تعريفاً دقيقاً فقال:(هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له إختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد التشبيه و المجاز و الكناية وجهها)[٥٣].

وكان القزويني أخر من وقف عند البلاغة من المتأخرين وميز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلم فقال في الأولى:(وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته).[٥٤] ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير...الخ. وأما بلاغة المتكلم (فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ)[٥٥].

وكانت مهمة الباحثين في العصر الحديث هو التعريف بالتراث البلاغي، من خلال كتابة التاريخ البلاغي، وفي هذه الفترة قام الباحثون بوضع كتباً، تدور حول تطور البلاغة، فكتب أحمد مصطفى المراغي كتاب أسماه(تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها) الذي أصدره سنة ١٩٥٢م. وتقوم خطة الكتاب على شرح الأطوار التي مرت بها البلاغة العربية منذ بدء التصنيف، إذ كانت عبارة عن كتب في النقد وأعجاز القرآن وبحوث مبعثرة والموازنات الى أن صارت كياناً عند عبد القاهر الجرجاني. وذكر المراغي سبب كتابة تاريخ البلاغة هو أن(ترشد الناظر فيها الى ما طرأ من التحول في إتجاه أبحاث المؤلفين وعلى خدمة الكتب دون خدمة الفن، مما كان مدعاة لوقوف الحركة الفكرية في مسائل العلم الحقيقية)[٥٦].

ويعتبر كتاب شوقي ضيف(البلاغة تطور وتاريخ)من الدراسات الشائعة في تلقي التراث البلاغي من ناحية الكتابة التاريخية، كذلك يعتبر من الأعمال التي ساعدت الباحثين على الرفع من قيمة هذا التراث من خلال التعريف به وكتابة تأريخه، وتفسير تأويليه. ولم يكن الكتاب الذي قدمه شوقي ضيف فقط سرد تاريخي، بل إرتقى أن تكون حلقة وصل بين مرحلة تاريخية وأخرى، والربط بين الجابين التاريخي والبلاغي. وكانت البلاغة غي العصرين الجاهلي والإسلامي قد بلغت مرتبه رفيعة من البلاغة والبيان، وقد صور الذكر الحكيم وذلك في غير موضع منه قوله تعالى(**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**)[٥٧]. وقوله تعالى(**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**)[٥٨]. كما صور شدة عارضتهم و قوتهم في الحجاج و الجدل بمثل قوله تعالى(**فإذا ذهب الخوف سلقوهم بألسنة حداد**)[٥٩].وقوله تعالى(**ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون**)[٦٠] .

ومن أكبر الدلالة على ما حذفوه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم و صحته القاطعة لهم أن من دعا أقصاهم وأدناهم الى معارضة القران في بلاغته الباهرة. وهي دعوه تدل

في وضوح على ما أتوه من اللسن والفصاحة و القدرة على حوك الكلام، كما تدل على بصرهم بتمييز الألفاظ و المعاني وتبيين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير. يروى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألداء إستمع إليه وهو يتلو بعض آيات القرآن، فقال:(والله لقد سمعت من محمد كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق) [٦١].

وفي كلام الوليد ما يظهر لنا أنهم كانوا يعربون عن أعجابهم ببلاغة القول في تصاوير بيانية، ويعرض علينا الجاحظ في بعض فصوله في كتابه(البيان والتبيين) كيف كانوا يصفون كلامهم في شعرهم وخطاباتهم ببرود العصب الموشاة وبالحلل والديباج والوشى وأشباه ذلك. وكثيراً ما وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع لسن كما وصفوهم باللوذعية والرمى بالكلام العضب القاطع، وفي أمثالهم جرح اللسان كجرح اليد، ويروى أن الرسول الكريم إستمع الى بعض خطباءهم، فقال: أن من البيان لسحرا.[٦٢] ومما يدل على توسعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض، وإشتقاق بعضه من بعض. وقال النبي محمد(ص):(نعمت العمة لكم النخلة)،حين كان بينه وبين الناس تشابه و تشاكل ونسب من وجوه.

وسأل اللهَ عز وجل موسى بن عمران عليه، حين بعثه الى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: **(وأحلل العقدة من لساني يفقهوا قولي)**[٦٣]. وقال موسى عليه السلام:**(وأخي هارون أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني)**[٦٤]. رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يؤتى من وراء الحاجة، ويبلغ إفهامهم على بعض المشقة.

ومن الصعب الإلمام بتحديد مصطلح (البلاغة) ذلك لكثرة المفاهيم التي إحتوت عليها كلمة البلاغة منذ إن كانت تستعمل على مستوى لغة التخاطب في الإستعمال العادي، لذلك وجدنا بعض الباحثين من يخصص بحثاً يستعرض فيه تحول دلالة الكلمة وتغير مفهومها، وإنقلاب أحوالها. وكلمة البلاغة، لاشك، تحتمل كل ذلك وتتسع له، لأنها مرت بأزمان متعددة، وشهدت تحولات مختلفة، بل كانت كلمة البلاغة مجالاً صالحاً لعرض ثقافات و علوم وإهتمامات كثيرة[٦٥].

ولما كانت العربية تقوم على المشافهة، ولم تتعلق فيها أسس التفكير الكتابي، فقد إتجهت دلالة البلاغة فيها إلى الكلام، لا إلى الكتابة، إلى لغة التخاطب لا إلى لغة الكتابة، ويجمع الجاحظ كثير من التعريفات تنطق كلها من كون البلاغة في التعريف الشفاهي لا الكتابي[٦٦].

ومن القضايا المهمة التي يلحظها المتأمل للمصطلح البلاغي كثرة المصطلحات البلاغية قياساً على مصطلحات بقية علوم العربية الأخرى، فحين ننظر مثلاً الى مصطلحات النحو و الصرف

مجتمعة نلحظ أنها لم تزد عن(٦٥٥) مصطلح مع قدم نشأة هذين لعلمين، وكثرة أبوابها، والتوسع في التأليف فيهما، في حين نجد أعداد المصطلحات التي رصدتها معاجم المصطلحات البلاغية تكشف عن كثرة بينة للمصطلحات البلاغية، إذ بلغت في أكثر المعاجم إستقصاء- وهو معجم الدكتور أحمد مطلوب-(١٠٨٧)مصطلح، وهذا العدد يثير أسئلة مهمة بشأن كثرة المصطلحات وتوزعها على أبواب البلاغة، أهو بالتساوي؟ أم يغلب أحدهما الآخر؟ وما التعليل العلمي لهذه الكثرة؟[٦٧].

والملاحظات البيانية كثرت في هذا العصر، وهي كثره عملت فيها بواعث كثيرة، فقد تحضر العرب وإستقروا في المدن والأمصار، ورقيت حياتهم العقلية، وأخذوا يتجادلون في جميع شئونهم السياسية والعقيدية، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة، ونما العقل العربي نمواً واسعاً، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان[٦٨].

وقامت في هذا العصر سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية، بل لقد تحولا الى ما يشبه مسرحين كبيرين، يغدوا عليهما شعراء البلدتين ومن يفد عليهما من البادية، لينشروا الناس خير ما صاغوه من أشعار. وأستطاع جرير والفرزدق أن يتطورا في سوق المربد بفن الهجاء القديم، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشيرتي الشاعرين وحقائق قيس وتميم، ويحاكيهما كثير من الشعراء، ويتجمع لهم الناس يصفقون كما مر بهم بيت نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون[٦٩].

وفي العصر العباسي الأول تتسع الملاحظات البلاغية، وقد أعدت لذلك أسباب مختلفة، منها ما يعود الى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية، ومنها ما يعود الى نشوء طائفتين من المعلمين، عنيت أحداهما باللغة والشعر، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته. وفي هذا العصر كثيرين من الفرس والموالى أتقنوا العربية وحذقوها، إتخذوها لسانهم في التعبير عن عقولهم ومشاعرهم، واظهروا في ذلك براعة متقطعة النظير. وقد اخذوا هم ومن يرجعون الى أصول عربية خالصة يشعرون بجامعة العروبة العامة ويتنفسون الحضارة السياسية ويصطبغون بأصباغها الثقافية، وأبن المقفع المتوفى سنة ١٤٣هـ، فقد ترجم عن الفارسية كتباً تاريخية مختلفة وأخرى سياسية وأدبية، كما ترجم كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسطاليس. وأتسعت الترجمة بعده، وأسست لها دار الحكمة، وأكب المترجمون من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي. وكان ذلك تحولاً كبيراً في الفكر العربي، إذ أصطبغ بثقاف وغيرهم ينقلون التراث اليوناني والفارسي والهندي. وكان ذلك تحولاً كبيراً في الفكر العربي، إذ أصطبغ بثقافات كثيرة[٧٠].

وفي أواخر القرن الرابع وفي القرن الخامس يصادفنا أربع علماء لهم الفضل الكبير في الدرس البلاغي وهم:

١_ القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني(ت٤٠٣هـ)وهو مؤلف كتاب(أعجاز القرآن) الذي قصد منه أن بين جوانب الأعجاز البياني في كتاب الله سبحانه وتعالى. وعرض، فيما يتصل بالبلاغة، للإستعارة، وحسن التشبيه، والمقابلة والتجنيس...الخ وذكر لكل نوع من هذه الأنواع شواهد وأمثلة[٧١].

٢_ أبو الحسن، محمد بن الطاهر المعروف بالشريف الرضي(ت٤٠٦هـ): ألف فيما ينتسب الى العلوم البلاغية كتابين رائعين هما(تلخيص البيان عن مجازات القرآن)و (المجازات النبوية)[٧٢].

٣_ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني(ت٤٥٦هـ)ألف كتاب:(العمدة في محاسن الشعر وآدابه)وقد ضمنه طائفه من الآراء في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه. وخص بأبواب مستقلة كلاً من البلاغة، والأيجاز، والبيان، والنظم والتمثيل والتشبيه ..الخ[٧٣].

٤_ الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ): صنف في البلاغة كتابين من أجود ما كتب في الموضوع الى اليوم وهما:(دلائل الأعجاز)و(أسرار البلاغة). وإليه يعود الفضل في تفضيل كثير من المباحث فيما يعرف اليوم بإسم(علم البديع)و(علم البيان)على نحو لا نجد نظير له فيه. وعن صنيع الجرجاني في أسرار البلاغة يقول المستشرق هلموت ريتر محقق الكتاب في مقدمته القيمة له باللغة الأنجليزية:(وهكذا فإن الكتاب رائعة الأدب العربي، لا من حيث مضمونه وتحليلة العميق للأبداع الشعري فحسب، بل من حيث أسلوبه أيضاً)[٧٤].

وفي القرن السادس جاد الزمان بنابغة عصره الذي أضاف الى البلاغة العربية ما يزدان به جيدها الى اليوم. وذلك هو جارالله محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ) وهو صاحب تفسير القرآن الكريم المسمى(الكشاف)ومؤلف كتاب(أساس البلاغة)و يعد الكشاف خير مصدر لدراسة أسرار العربية وأساليبها في الحقيقة، والمجاز، والأستعارة، والتشبيه. وفي كتابه الثاني(أسرار البلاغة)فقد أنفرد في نوعه، وعمد فيه الزمخشري الى مواد اللغة العربية واحده فواحده، يوضح في كل مادة الإستعلامات الحقيقية لها، وبين تطورها الدلالي بطريق المجاز. وقد إستحق الزمخشري أن يقال فيه وفي السكاكي:(لولا الأعرجان لجهلت بلاغة القرآن)[٧٥].

وفي القرن السابع يتقدم لخدمة البلاغة العربية عالمان كبيران أسهما في تطور الدرس البلاغي على نحو واضح؛ وهما أبو يعقوب يوسف السكاكي(ت٦٢٦هـ)و ضياء الدين بن الأثير الجزري(ت٦٣٧هـ)والسكاكي كان متأثراً بالدرس الفلسفي الذي شب على تلقيه وأولع به كثيراً فترك مياسم واضحة في كل ما ترك من مؤلفات. ومهما قيل في شأن الأتجاه المنطقي المسرف في تناوله للبلاغة، فأنه يضل- بأهلية تامة- صاحب السبق إلى دراسة علوم البلاغة بوصفها

علمية لها أصول ولها قواعد وضوابط. وقد أسدى للبلاغة ما ضلت مدينه له به إلى اليوم وجاء إسهامه في تضاعيف كتابه (مفتاح العلوم)إسهام ممتاز [٧٦].

وأما ضياء الدين بن الأثير، فقد ألف فيما له صلة بالبلاغة، كتابه المشهور(المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر)وكتاباً آخر هو(الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور)[٧٧].

وأخذ الشعراء يعنون عناية شديدة بالعربية، وراح فريق منهم إلى البادية كي يتزود من منابعها الأصلية، يتقدم بشار وأبو نواس–ومن أقام منهم في الحاضرة لزم اللغويين في المساجد الجامعة يروى عنهم الشعر القديم، وما يزال يرويه حتى تستقيم له سليقته العربية، وحتى يغدو كأنه عربي أصيل، وقد مضوا يلائمون بين لغة الشعر القديم وبين ما عاشوا فيه من حضارة ومن رقي عقلي، وبذلك ثبتوا بدورهم الأسلوب المولد الجديد كما ثبته الكتاب و المترجمون من أمثال أبن المقفع[٧٨].

وفي القرن الثامن شهد تاريخ البلاغة إنعطافاً نحو الشرح والتعليق والإيضاح، يجعل بعض مصنفات السابقين أساساً يبنى عليه و يضاف إليه. وفي طليعة من نهج هذا المنهج في التأليف البلاغي في هذا القرن الأمام جلال الدين، قاضي القضاة، محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني(ت٧٣٩هـ). وقد بدا له التأليف بين طريقي عبد القاهر في(أسرار البلاغة) و(الدلائل)، والسكاكي في(المفتاح)يمكن أن يفيد الدرس البلاغي كثيراً. وهكذا باشر عمله بتلخيص القسم الثالث من (مفتاح العلوم)للسكاكي، وضمنه ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ورتبه على نحو يجعله أقرب تناولاً، وسمى ملخصه(تلخيص المفتاح)[٧٩].

وكلما إنتهى جيل من أجيال العصر أسلم تراثه مع التراث القديم الى الجيل الذي خلفه، وهذا الإلتقاء بين الجديد والقديم وما كان من إستغلال الجديد للقديم هذا الأستغلال الحي الخصب دفع إلى نشاط الملاحظات البلاغية نشاطاً واسعاً، فإن الشعراء وازنوا كثيراً بين معانيهم ومعاني القدماء، و حاولوا أن يثبتوا تفوقهم عليهم وخير دليل ما يصور ذلك قول بشار بن برد: ما زلت أروى في بيت أمرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالي

إذ شبه شيئين بشيئين، حتى ضعت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهو إنما يريد تشبيه شيئين بشيئين، إذ التشبيهان مختلفان. ولعل في ذلك ما يشير الى أن الشاعر العباسي كان يحاول محاكاة الشاعر القديم في وسائله البلاغية من تشبيه وغير تشبيه، مستعيناً بفكره الدقيق ولطف مسالكه الى المعاني والأخيلة، وبحسه الحضري الرقيق ومشاعره المرهفة[٨٠].

وقال الجاحظ :(من أراد م يبلغ صناعة البلاغة ...فليقرأ كتاب كاروند) وهو كتاب فارسي مؤلف من كلمتين كار: الصناعة ،وند: الثناء والمديح، ولا ندري ولا ندري هل هذا الكتاب كان يحمل آراء في البلاغة أو أنه كان يحمل بعض رسائل الفرس، ومن يقرأ رسالة الجهشياري في كتابه(الوزراء والكتاب) وهي رسالة سياسية وإجتماعية غير موجة لشخص معين وإنما موجهة للطبقة الحاكمة من ملوك و أمراء و ولاة وكتابهم فيجب عليهم أن يتحلوا بالعلم والأدب وأن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض، يرى في وضوح أن العرب صاغوا كثيراً من رسائلهم على ضوء رسائل الفرس وبعض ما أثر عن بزر جمهر وغيره، ولهذا وضع لهم الجهشياري في مقدمة بعض النماذج الفارسية، ليتخذوا منها القدوة في عملهم ويحاكوها في كتاباتهم، وهي محاكاة تضرب بجذورها منذ عبد الحميد كاتب الأمويين، وكان يرجع لأصول فارسية، وفيه يقول صاحب الصناعتين: (ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب إستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها الى اللسان العربي)[٨١].

ولنا الحق في الرد على هذا الكلام الذي يرجح أن للفرس بلاغة قبل العرب ولكن في الحقيقة العرب عرفوا البلاغة قبلهم لأن العرب تولد بلاغتهم معهم أي منذ نشأتهم يكون كلامهم بليغ وفصيح ولكنهم لم يدونوها والفرس كانوا يبعثون شعراءهم و أولادهم كي يتعلموا علوم البلاغة من العرب وفنون الشعر ولكن العرب أخذوا من ثقافة الفرس ومقولة الجاحظ تدل على أنه لم يطلع على كتب أرسطو والدليل على ذلك ما ذكره شوقي ضيف في كتابه(البلاغة تطور وتاريخ) أن المعتزلة جاءوا بآراء مختلفة للفرس عن البلاغة وكذلك كانوا يعرفون بعض آراء اليونان والجاحظ لم ينقل أي رأي في البيان أو البلاغة وفي ذلك تأكيد على عدم ترجمة كتاب "الخطابة" حتى نهاية العصر العباسي الأول وكذلك كتاب "فن الشعر" وكذلك يزعم تخلف اليونان عن العرب والفرس في الخطابة وهذا دليل قاطع أنه لا يعلم شيئاً عن كتاب أرسطو الذي تكلم عن الخطابة ولا عن إزدهاره عندهم.

وكانت البلاغة تهتم باللغة لإهتمامها بالمصالحة بين المتكلم و المخاطب، أو تحقيق مآرب الحياة التي تنال من خلال البراعة في القول والأداء. وقد وظف البلاغيون المتأخرون الشعر لخدمة الأغراض العلمية في قصائد إجتمع لها جودة الفن وبراعته ودقة العلم وأصالته في الإحاطة بموضوع العلم إحاطة شاملة من خلال المدائح النبوية ذائعة الذكر المعروفة بـ (البديعيات)[٨٢]، وهكذا فقد ضلت البلاغة في تطور علم من العلوم يمر بمراحل من الزمن نكسبه معلومات جديدة و توثق ما مر سابقاً لذلك النقاد والباحثون ينصب إهتمامهم على قراءة التراث البلاغي لمعرفة ما مر به من تجارب لغاية ما أصبح بهذه الصورة المكتملة.

الهوامش

---

١. ينظر الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري(ت ٣٩٨هـ)، تحـ: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٦م، مادة(قرأ)، كذلك ينظر لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، ط١، ٢٠٠٠، مادة (قرأ)، وتاج العروس من جواهر القاموس ، مجد الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، المطبعة الخيرية، القاهرة– مصر، ١٣٠٦هـ، مادة(قرأ).

٢. القراءة تعاريف وأنواع ووظائف ، أفنزتي ، ترجمة علي تعوينات، ٦ يوليو في ٢٠٠٩م، مقالة منشورة على شبكة النت العالمية.

٣. روبير تو ترانس: ترجمة أنطوان فوزي، مقال في مفهوم القراءة، مقالة على شبكة النت العالمية.

٤. القراءة تعاريف وأنواع ووظائف: ص٨١.

٥. في مفهوم القراءة : أ . م. د. عبد السلام محمد رشيد– م. م. إيهاب مجيد محمود جراد، مجلة الأستاذ، كلية التربية –إبن رشد للعلوم الإنسانية/ جامعة بغداد، تأسست ١٩٥٢م، العدد٢١٠. المجلد الأول، ١أيلول ٢٠١٤م، ص١.

٦. المصدر نفسه: ص١.

٧. نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر: محمد الدغمومي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب العربي– الرباط، ط١، ١٩٩٣م، ص٢٧٢.

٨. قراءة جديدة لتراثنا النقدي: أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت في جدة الأدبي والثقافي، ١٩– ٢٤/١١/١٩٨٨م، قدم لها د. عز الدين إسماعيل ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٩٩٠م،ص١٥.

٩. إشكالية القراءة وآليات التأويل: نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي– المغرب، ط١٩، ٢٠١٢م،ص٥.

١٠. المصدر نفسه : ص٦.

١١. في مفهوم القراءة: ص٥.

١٢. الخطاب النقدي عند المعتزلة: كريم الوائلي، دار مصر العربية القاهرة، ص١.

١٣. آليات قراءة النص التراثي عند طه عبد الرحمن: أحمد أتزكنرمت، مجلة أنفاس، ٢٩ آذار،٢٠١٠.

١٤. ينظر: القراءة المعاصرة في التراث النقدي والبلاغي عبد الحكيم مرتاض أنموذجاً: أيهاب مجيد جراد، ط١، ٢٠١٤م، ١٤٣٥هـ، ص٣٢.

١٥. فن الشعر: محمد مندور، مؤسسة هنداوي، ص٥٤.

١٦. الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي: الولي محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٥٣.

١٧. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١، ١٩٥٠م، ١٣٦٩هـ، ص٣.

١٨. المصدر نفسه: ص٤.
١٩. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ص٦.
٢٠. المصدر نفسه: ص٩.
٢١. ينظر تلقي البلاغة العربية في النقد المغاربي: الحسين سونه، ص٩.
٢٢. في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية الخطابة في القرن الأول نموذجاً: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، ص١٣، ١٤.
٢٣. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ص١١، ١٢.
٢٤. تلقي البلاغة الجديدة في النقد المغاربي: ص٩.
٢٥. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ص١٨.
٢٦. المصدر نفسه: ص١٩.
٢٧. ينظر تلقي البلاغة الجديدة في النقد المغاربي: ص٩، ١٠.
٢٨. تلقي البلاغة في النقد المغاربي: ص١١.
٢٩. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ص٢٨.
٣٠. المصدر نفسه: ص٥٠.
٣١. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: ص٥٠.
٣٢. المصدر نفسه: ص٥١.
٣٣. المصدر نفسه: ص٥٣.
٣٤. مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية: ضياء خضير، محاضرة ألقيت في المجمع العلمي العراقي بتاريخ ٩/٣/ ١٩٩٨م.
٣٥. مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية: ضياء خضير.
٣٦. الأدب والدلالة : تزيفتان تودروف، تحـ، محمد نديم خشفه، حلب، ١٩٩٦م، ص٩١.
٣٧. ينظر الأسلوبية ونظرية النص: د. إبراهيم خليل، بيروت، ١٩٩٧م، ص٦٧.
٣٨. دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٥م، ص١٩.
٣٩. المصدر نفسه: ص٢٠.
٤٠. البيان والتبيين: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحـ، عبد السلام محمد هارون، ج١، ص٨٨.
٤١. مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية.
٤٢. البيان والتبيين: ص٩٦.
٤٣. لسان العرب: حرف الباء، (بكأ).
٤٤. البيان والتبيين: ص١١٤.
٤٥. المصدر نفسه: ص١١٥.
٤٦. المصدر نفسه: ص٥٩.
٤٧. الصناعتين: أبي هلال العسكري، تحـ ، علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت- سنة ١٤١٩هـ ، ص٦.

٤٨. المصدر نفسه: ص١٠.
٤٩. سر الفصاحة: أبو محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٢م، ص٥٩.
٥٠. دلائل الأعجاز: عبد القاهر الجرجاني، علق عليه محمود شاكر، مطبعة المدني، دار المدني بجدة، ص٤٣.
٥١. نهاية الإيجاز في دلائل الأعجاز: فخر الدين محمد بن عمر الرازي، علق عليه، د. نصر الله حاجي أوغلو، دار الصادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣١.
٥٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين إبن الأثير، علق عليه د. أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة، القسم الأول، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص٩٤.
٥٣. مفتاح العلوم: أبي يعقوب يوسف السكاكي، علق عليه : نعيم زرزور– دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٧م، ص٤١٥.
٥٤. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين محمد القزويني، تحـ، محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجبل، ط٣، ج١، ص٤٠–٤١.
٥٥. المصدر نفسه: ص٤١.
٥٦. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: أحمد المراغي، مطبعة مصطفى الحلي، مصر، ط١، ١٩٥٠م، ص٧.
٥٧. سورة الرحمن: الآيات(١–٤).
٥٨. سورة البقرة: أية(٢٠٤).
٥٩. سورة الأحزاب: أية(١٩).
٦٠. سورة الزخرف: آية (٥٨).
٦١. البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف– الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ط٩، ص٩.
٦٢. المصدر نفسه: ص١٠٩.
٦٣. مجمع الأمثال: أبو الفضل الميداني، مجلد١، ص٣٦٢.

٦٤. سورة طه: آية(٢٧–٢٨).
٦٥. سورة الزخرف: آية(٥٣).
٦٦. البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكواز، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت– لبنان– ص١١.
٦٧. المصدر نفسه: ص١١.
٦٨. قضايا المصطلح البلاغي كثرته، وتعدده، وإشتراكه، وصياغته: د. محمد بن علي الصامل، بحث ص٤٢٠.
٦٩. البلاغة تطور وتاريخ: ص١٥.

---

٧٠. المصدر نفسه: ص١٥، ١٦.
٧١. البلاغة تطور وتاريخ: ص١٩، ٢٠.
٧٢. المفصل في علوم البلاغة العربية: عيسى علي العاكوب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ٢٠٠٠م، كلية الآداب للعلوم الإنسانية، جامعة حلب، ص٢٩.
٧٣. المصدر نفسه: ص٢٩.
٧٤. المصدر نفسه : ص٣٠.
٧٥. المصدر نفسه: ص٣٠.

٧٦. المفصل في علوم البلاغة العربية: ص٣٠، ٣١.
٧٧. المصدر نفسه: ص٣١.
٧٨. المصدر نفسه: ص٣١.
٧٩. البلاغة تطور وتاريخ: ص٢٤.
٨٠. المفصل في علوم البلاغة: ص٣٢.
٨١. البلاغة تطور وتاريخ: ص٢٥
٨٢. البلاغة تطور وتاريخ: ص٣٨.
٨٣. دروس في البلاغة العربية: سعد سليمان حموده، دار المعرفة الجامعية-كلية الآداب جامعة الإسكندرية- سنة ١٩٩٩م، ص٣٣٥.